

التفاصي إلا أمام القضاة العاديين وبحسب قانون البلاد ولذا اغتنى أهل هذه الديار
فصلكوا الذهب والفضة وجميع الحاجيات فتراهم لا يشربون ماء بنة اللهم إلا أن
يكون ذلك على سبيل التوبة ويطعمون لحوماً وأسماكاً بكثرة وأقمشتهم من جيد
الصوف فهم أغنياء بأثاثات بيوتهم وبأدوات الزراعة وفي كل ما من شأنه أن يجعل
الحياة وديعة.

مدن القرون الوسطى

الفتح الألماني - تحلت الشعوب الجرمانية هجرتها إلى الغرب لتدخل إلى الإمبراطورية
الرومانية عن بلاد الشرق لشعوب من عصر آخر وهم السلافيون (الصقالبة) حتى
لقد غدت جميع البلاد الواقع شرقي الألب ملكاً لقبائل من السلافيين وقد صادف
القديس بونسياس حتى على شواطئ الفوادا أناساً من السلافيين هزوا منه وسخروا
وبقي ما وراء ذلك من مستنقعات شواطئ بحر البلطيق شعوباً قديمة (كالبروسيين
والليتوانيين والفنلنديين) وهو الشعوب وثنية محاربة ولكنها ردينة السلاح منقسمة إلى
قبائل لا قبل لها بالمقامة فشرع الألمان في تصيرهم وإخضاعهم وأنشأ ملكوك جرمانيا
بلاداً على التحوم وأطلقوا لقومها حرية الحكم كما يشاؤون ومن هذه البلاد نشأت
الثلاث إمارات الألمانية الرئيسية وهي إمارة براندبورغ مملكة بروسيا وإمارة ميمني
وسط مملكة الساكس والإمارة الشرقية في جنوب مملكة النمسا وأسسوا أيضاً
أسقفيات بعثت من قبلها المرسلين.

أخذ النصر يجري ببطء (من القرن العاشر إلى الرابع عشر) بطرق مختلفة فدان
بالمحية أمراء الصقالبة في معظم البلاد على أيدي نساتهم اللاتي تنصرن وحطموا
الأصنام وأكروهوا رعاياهم على قبول الدين المسيحي وكان من يتناول اللحم في
الصوم الكبير من أهل بولونيا تقلع أسنانه عقاباً له. وبقي السكان في تلك البلاد

صقالبة. ونال زعيمهم الوطني لقب دون أو ملك ويعترف أنه من عمال الإمبراطور ولم تكن معظم هذه الأمم على شيء من التعصب ولما جاء برنارد الإسباني إلى بومرانيا لينال الشهادة أخذ في تحطيم الأصنام المقدسة فاكتفى الوثيون بضربه واذ قد ظل على الدعوة الدينية اركبوه على قارب في فر الأودر قائلين إذا كنت كثير الرغبة فيما أنت أخذ نفسك بسيله فإذهب لبث دعوتك بين الأسماك والطيور.

وعلى العكس ثمرد بعض الشعوب في الشمال فإن الأوبترين ذبحوا ملكاً يريد أن ينصرهم (١٠٦٦) وبعد ذلك قام الليفونيون وكان آتاهم الفرسان الألمان وعدوهم مكرهين يسرعون في أثر الجيش يلقون بأنفسهم في فر الدونا ليجلوا من العماد وعلى أولئك أعلن الألمان حرباً أبادهم فيها وقد فتح قوامسة الرهينة التوتينية بلاد بروسيا وفرسان حملة السيوف ليفونيا وليستونيا فكانوا يحرقون القرى ويذبحون الرجال ويعودون بالنساء والأولاد وقد كثر بيع الأسرى السلافيين في بلاد ألمانيا كلها حتى أصبحت كلمة سلافي في الإفرنسية والألمانية مرادفة لكلمة عبد وبقيت كذلك وقد باد الوانديون (ولم يبق منهم إلا بقايا لجأوا إلى مستنقعات سيرى وعاد البروسيون والليفونيون رعايا هكذا فتح العنصر الألماني ثلاث ولايات جديدة براندبورغ وبروسيا وليفونيا).

الاستعمار الألماني - كانت السهول العظيمة من نهرى الأودر والفيستول منخفضة رطبة ومغشاة بغابات وسط البطائح فولاية براندبورغ (رملة ألمانيا) لم تكن غير صحراء كنية من الرمل ولا يزال الرمل إلى اليوم عندما يهب الريح يسد أبواب البيوت وعند شيخ البلد في أرض فلامن مفاتيح عين البلد يوزع كل صباح على السكان ما يحتاجون إليه من الماء فاستدعى أمراء الألمان والسلافيون من ألمانيا فلاحين وأرباب صنائع يأتون إن أحيوا لزرع هذه الرمال واستثمار الغابات وتأسيس المدن

وأنشأ الألمان بهاجرون عن رضى خلال فرنين وأتت ألوف من السر ألمانية تنوطن في القفار الشاسعة من الشرق كما يذهب الناس في أيامنا لاستيطان صحارى أميركا الشاسعة. فكان الأمير يبيع من أحد الملتزمين قطعة من غابة أو طريدة من الأرض تكفي لإنشاء قرية فيجلب الملتزم فلاحين ويوزع عليهم الأراضي حصصاً حافظاً لنفسه مالاً ويحببه في أوقات معينة فيكون حاكمهم الوارث إلا أن الفلاحين يقون أحراراً لأنهم هم الذين أحيوا موات الأرض ويحفظون بعادتهم الألمانية. وإذا أريد تأسيس مدينة يقيم لها الملتزم خنادق وحوائط في جهاتها الأربع ويؤسس فيها سوقاً يحفظ لنفسه الحق أن يأخذ منهم رسوماً. جرت هذه الأعمال على مهل تحت طي الخفاء ولقد شغل مؤرخو تلك الأيام بذكر حروب الأباطرة فلم يفكروا بأن يلصوا في الصورة التي جرت في تأسيس ألوف من القرى ومئات من المدن في براندبورغ وبوميرانيا وبروسيا وسيليزيا وبوهيميا. ونشأت في الجهة الأخرى من فر الألب ألمانيا حديثة ألمانيا العاملين والجنود ألمانيا النمساويين والبروسيين الذين آل إليهم فيما بعد أمر جميع أمم ألمانيا القديمة.

المدن الحرة - أسست المدن الرئيسية في ألمانيا حول قصر الملك أو حول بيت أسقف أو أمير فالملك أو الأسقف سيد المدينة والتجار مستأجرون لأن أرض المدينة ملكه وأرباب الصناعات عبيده يعملون له ولرجالهم وفرسانه وخدامه يحكمون على الصناع والسوق. وكلمة نفا الشعب يتخلى الملك عن النظر في شؤون السكان حتى انتهت الحال أن لا يتناول سوى رسوم مقررة من الصناع أخلاف العبيد فلم يعد في المدن سوى رجال أحرار فالمدن التي زاد نجاحها في القرن الثاني عشر هي من أملاك الأساقفة جاء في المثل الألماني ما أحلى عيش المرء في ظل العكاز فيجمع الأسقف خدامه وأهم التجار في مجلسه ليحكموا مدينته ولم يكن هذا المجلس سوى مجلس

للأسقف. ولما قوى نفوذ المدن في القرن الثالث عشر وطردت أساقفتها أصبح ذاك المجلس مجلس المدينة وغدت له سلطة أمير فكان يقضي ويشهر الحرب ويخاطب الإمبراطور مباشرة وتسمى المدينة المدينة الحرة لأنها لم تخضع لسيد.

الصناع - قسموا الصناع إلى طوائف منذ كانوا عبيد الأسقف يعملون له ولرجالهم وكل طائفة تؤلف من صناع يحترفون حرفة واحدة ويخضعون لأحد خدام الأسقف وتسمى مهنة (أي خدمة) وزعيمها وكيل المدير أو شيخ الحرفة وذلك مثل مهنة الحدادين ومهنة السروجيين ومهنة الخياطين وغيرها ومن هنا اشتق اسم صنعة بالمعنى الذي نطلقه عليها وأصبح أرباب الصناعات أحراراً بالتدريج فبدلاً من أن يصنعوا لسادقهم وهم يعولونهم يعملون لحسابهم ويبيعون ما يعملون في السوق ظلوا منظمين طوائف بحسب الحرف ويتألف من كل حرفة جماعة ولهم صندوقهم العام وعلمهم الذين يحملونه في الحفلات ويرفعونه إذا خرجت المدينة لقتال ولهم حاميتهم المقلس (ويسمون في فرنسا شيوخ الحرف) ولهم نظامهم بحسب عادة القرون الوسطى كانت عادات لا حاجة لتدوينها. وفي فرنسا لم تدون عادة صناعات باريز إلا في أواسط القرن الثالث عشر وهذا القانون يبين الشروط التي يقبل بها المرء في هذه الصناعة. فيبدأ الولد بأن يكون خريجاً على معلم في الصنعة فيعلمه المعلم صناعته ويطعمه ويؤويه فالخريج يعمل لحسابه ويخضع لها وللمعلم الحق بأن يضربه وبعد بضع سنين يصبح الخريج رقيقاً ولا يزال يعمل باسم معلمه وله أن يغادر معلمه ويذهب إلى غيره فالرفقة هم أناس متقلون وكثير منهم يتقلون من مدينة إلى أخرى يعرضون على أرباب الصناعات أن يشتغلوا معهم وبقيت هذه العادة جارية في فرنسا في تنقل صاحب الصنعة في أطراف البلاد. ومن كانوا على شيء من الغنى يفتحون حوانيت ويصبحون معلمين ولهؤلاء فقط الحق في أن يعطوا آرائهم في مجلس أهل الصناعة

وتبين القوانين كيف يجب العمل ويحظ على العمل أن يشتغل في غير دكانه وبذلك يتيسر للجمهور أن يراقبه. ويحظ عليه أن يعمل تحت نور الصباح حتى لا يعمل عملاً رديناً ويمنع من استعمال مواد أخرى أو عمل أشياء تخالف القدر الذي أمر به القانون فالصياغ مثلاً لا يطلون الذهب بالفضة وصناع التماثيل لا يحملون إلا أجناساً مخصوصة من الخشب وإذا كان ثوب الجوخ أكثر أو أقل عرضاً من مقياس المقرر يصادر ويغرم صانعه ويحفظ أهل الصناعة بشرفهم وشرفهم أن يبيعوا إلا بضائع حسنة السرود والتقدير ولذا كان يراقب بعضهم بعضاً أشد المراقبة ثم أقم بعضهم بعضهم بعضاً أمام العرباء وأمام سائر أرباب الحرف وليس لأحد في المدينة الحق أن يصنع سلعة أو يبيعها إلا معلمو الصناعة فيغرم كل رجل يفتح دكان خياط قبل أن يقبل في صناعة الخياطين وتغلف دكانه فحق عمل شيء من الصناعة وبيعها ملك خاص لأهل تلك الصناعة فالخياطون يمنعون باعة الخلق (الأسمال) من بيع ثياب جديدة لأن لهم وحدهم الحق في عمل ذلك وما عمل باعة الخلق إلا أن يبيعوا ألبة عتيقة وصانعو اللحم يتقاضون على السروجيين ليمنعوهم من عمل اللحم وذلك لأن صناعات القرون الوسطى كانت تحاذر من المنافسة كثيراً.

وأهم أرباب الحرف هم الخبازون والقصابون والحاكة والصباغون والبنائون والدباغون وصانعو الأسلحة والنجارون وعدد الصناعات متوقف على مكانة المدينة وليس في كثير من المدن الألمانية سوى ١٨ أو ٢٠ صناعة وكان في باريز زهاء مئة حرفه وذلك لأن عدة صناعات مختلفة يمكن جمعها في صناعة واحدة أو أنه يتيسر تجزئة الصناعة الواحدة إلى عدة حرف (في باريز مثلاً ثلاث حرف لصناعة السباحات).